الشيخ ابرهيم اليازجي سجاني

ولم يحسدوا من عالم غير عامل خلائقه من عامل غير عالم

ان بني اليازجي من اسرة حمصية الاصل نشأ من نسلها كثير من الادباء استكتبهم ولاة عهدهم ولقبوهم باليازجي (كلمة تركية بمعنى الكاتب) وقد اطلعنا في الخط بعض مخطوطات ودواوين ورد فيها ذكر بعض متقدميهم مما نشرتهُ ملخصاً في كتابي (دواني القطوف) الذي كاد طبعهُ ينجز وسيقف عليهِ محبو المطالعة وزبدة ما هنالك ان هذه الاسرة عرفت بثلاثة بطون بنو اليازجي في حمص الاكراد ولبنان وبعض الجهات الأخر وبنو فياض وباز في بيروت ومن اشهرهم في المعارف بيت العلامة الشيخ ناصيف اليازجي الذي نشأ من افرادهِ صاحب هذه الترجمة

هو ابرهيم بن ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جبلاط بن سعد اليازجي الحمصي ولد في بيروت في ٢ آذار سنة ١٨٤٧ م في بيت كان عامرهُ اليازجي الاكبر مجمعة الطلاب وشرعة الآداب مكباً على التأليف والتصنيف ونظم القصائد والتواريخ الشعرية واجابة مراسليهِ من كبار ادباء عصرهِ في الشام والعراق ومصر وبعض مستشرقي الاوربيين وكثيراً ما كان ذلك البيت مجمعاً لكبار مرسلي الابارخ وادباء بيروت ولبنان يختلفون اليهِ لاقتباس المعارف وتصحيح ما يكتبون من منظوم ومنثور الى غير ذلك مما انشأ في البنين رغبة في العلم والتحصيل فنشأ المترجم على آسال والدهِ وتلقى عليهِ اللغة العربية وعكف على المطالعة فبرع فيها على حد قول ابن شقيقتهِ الشيخ نجيب الحداد

ورث العلوم وزادها من عنده كالمال زيد عليهِ من أرباحهِ

فنبغ في المنثور والمنظوم والآداب وهو بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من سنيهِ ونظم بعض القصائد وكان يختلف الى مطبعة الاميركان في بيروت ايام كان والدهُ يصحح مطبوعاتها فولع بمعرفة تركيب آلاتها والوقوف على حروفها ونقوشها ونحو ذلك فثبت فيهِ رغبة في الصناعة وكان شقيقهُ المرحوم الشيخ نصار متقناً لصناعة الصياغة وكثيراً ما يساعدهُ في بعض النقوش فمال الى الفنان الحفر وصنع الحروف وتأنق في اجادة الرسم والخط فاصبحت حياتهُ اشبه بتلك ملأت اعمالهُ فراغهُ وكادت اضلاعهُ تكون متساوية لحرصهِ على الفنان كل ما يرغب فيهِ وتقطهُ الثلاث في النظم والنثر والفنون (معرفة الفنون الجملة) فمن هذه النقط

الثلاث اشتهر المترجم بانهُ ناظم وناثر ومتفنن (Artiste) وعليها ابني الآن ترجمتهُ لمثلهُ الدعائم

نشأ المترجم شاعرًا لان والدهُ كان من كبار الشعراء وكثيرًا ما قرأ مدائح شعراء عصرهِ لهُ وشاهد شقيقهُ المرحوم الشيخ حبيب وشقيقتهُ الشاعرة الناثرة السيدة وردة ولرحين بهِ يعرضان قصائدهما على عماد البيت ومجمع النشء العلية فنظم في صباهُ منظومات رشيقة اهمها قصيدة بقيت في زوايا الكتمان لقمها على ما نظن في اوائل سنة ١٨٦٩ م وتلاها في احد المتنديات لنشرها برمتها لندرتها

برأيك لا إذا عزَّ النصيرُ ... ولا يبعث بهمتك الفتورُ
وأسهر في ظلام الليل جفنًا ... لهُ من فكرهِ فرٌّ منيرُ
ولا تكل الامور الى بتات ... تكون لغيرها تلك الامورُ
فأصدق من سعى لك انت في ما ... تحاولهُ وانت بهِ جديرُ
وقد تُلقى الامورُ الى غيورٍ ... ولكن ربما سئم الغيورُ
أتمشي مشاك ما تسعى اليهِ ... بنفسك حامدًا لا تستعيرُ
تناولت البدورُ ضياء شمسٍ ... فلم تسلم من الظلم البدورُ
ولسنا الجاحدين لفضل قومٍ ... لهم ما بيننا فضلٌ شهيرُ
رجالٌ احسنوا صنعًا ولكن ... بما في البيت صاحبهُ خبيرُ
اذا مضت الحياة على رقادٍ ... تشابهت المضاجع والقبورُ
اذا سهل الطريق امام ماشٍ ... فليس يصدهُ الاَّ القصورُ
اذا صدقت بما تبغي النوايا ... فليس لاهلها باعٌ قصيرُ
فقم بالامر عن قلبٍ سليمٍ ... يعاضد صدقهُ العزمُ الجسورُ
ولا تذهب بك الاهواء يومًا ... فراكب سبلها غاوٍ مثورُ
ارانا بالسنين قد اشتبهنا ... وما يجدي اذا اختلف النضيرُ
لكل الطير اجنحة وريشٌ ... ولكن بينها ما لا يطيرُ
وان اخفى بنو الناس شمسٌ ... على أفق العقول لها ظهورُ
فنهُ لأُكيد الجهلاء نارٌ ... ومنهُ لاعين العقلاء نورُ
ألسنا في رعاية من تحلت ... بذكرهم الصحائف والسطورُ
وابدوا في المعارف كل شمسٍ ... يزان بحسن بهجتها الاثيرُ
أينشأُ من لقدمنا المعالي ... فان بلغت ايادينا تبورُ

كأني بالبلاد تنوح حزناً ... وقد أودى بعقرتها الثبورُ
يحنُّ الارز في لبنان شجواً ... وتندب بعد ذاك العز صورُ
وتدمرُ في دمار مستمرٍ ... وما سكانها إلا القبورُ
وافحت بعلبك وليس فيها ... سوى خربٍ لعظمتها تشيرُ
فلو درت البلاد بما عراها ... لكادت من تلهفها تمورُ
بكم وبسعيكم تبنى المعالي ... وبغير رويتها الزوالي النضيرُ
فانكمُ لها اهلٌ وإلاَّ ... فليس لها بغيركمُ أميرُ
فجدوا واصبروا في كل خطبٍ ... فليس بفائزٍ إلاَّ الصبورُ
وظلُّ الدولة العظمى علينا ... تقارنهُ السعادة والسرورُ
فذلك فوق دوح العدل غيثٌ ... وذلك حولك روض العلم سورُ

ومن قديم منظومهِ مرثية الشيخ عبد الباقي العمري[1] شاعر العراق الشهير التي قال في مطلعها

ارى الموت صاح لا يزيغ لهُ فكرُ ... ونحن نشاوى قد تمكنا السكرُ
سكرنا بدنيانا التي تسكر النهى ... بكاسٍ لها سكرٌ وليس لها خمرُ

ومنهُ في مدح المغفور لهُ نصري فرنكو باشا لما نقلد منصب المتصرفية اللبنانية سنة ١٨٦٨ م بقصيدة مشهورة مطلعها

لسائم نجد هل تحملت من نجدِ ... اليَّ سوى حرّ الصبابة والوجدِ

ومن رشيق غزلياتهِ قولهُ من قصيدة

ما مرَّ ذكرك خاطراً في خاطري ... إلاَّ استباح الشوق منك سرائري
وتصيَّبت وجداً عليك نواظرٌ ... باتت بليلٍ من جفاتك ساهرِ

ومن بديع ابياتها قولهُ

كن كيف شئت تجد محبك مثلما ... تهوى على الحالين غير مغايرِ
صبري عليك بما اردت مطاوعٌ ... أبداً ولكن عنك لست بصابرِ

---

(١) لما انتهت هذه المرثية الى بغداد رثى والد المترجم الشيخ عبد الباقي التي مطلعها :

ارى فئة الدنيا في الآية الكبرى ... بصلُّ بها الهادي فيلهو عن الاخرى

كما انها ولد المرثي هذين البيتين :

أبتا لا يهنك سبدٌ ... نحن الى تأبينه نحنى
لو لم تكن قدسية روحهُ ... لا رثاهُ الآب والابن

ومن قصيدة اخرى في الوداع

وداعٌ وما يغني الوداع من الوجدِ ... ولكنهُ زادُ الشوق على البعدِ (١)
وما هي الاَّ وقفة عند فائتٍ ... تمازج فيها مطعما العتاب والشهدِ

ومن رشيق ابياتها قولهُ

تمتَّع فبيل الظعن من روضها الندي ... ومن عرفها الشافي ومن مائها الصدِ
فما قليل انت في متن سابحٍ ... توثَّل في هضبٍ وتهبط في وهدِ
ورب يسيرٍ يحسب الحظ كلهُ ... اذا لم تجد فيهِ سبيلاً الى الردِ

ومن زهرياتهِ ما انشدهُ في المدرسة البطريركية الكاثوليكية بحفلة سنة ١٨٧٠ م من قصيدة

قام الهزار على الأراكة خاطبا ... غنا الزهور مفارقاً ومناكبا
ودعا بسبح باسم خالقنا الذي ... جعل المياه لهنَّ قوتاً لازبا
وهو الذي بعث المياه مسخَّرًا ... هوج الرياح لكي تثير سحائبا
فاذا انقضى ماء الغمام بجوهِ ... أجرى لهنَّ من الجماد مشاربا
زجر الضفور برعدهِ فتصدَّعت ... رهباً فاخرجت اليبيس الذائبا
حتى مُقِينَ بهِ فعاد زمرُّدًا ... بجمال نضرتهِ كسينَ جلابيا
سبحان من شمل الجميع بجودهِ ... كرماً فلم يترك لديهِ خائبا

ومن قصيدة في مدح السلطان عبد العزيز

على مثل هذا المجد يعقد الفخرُ ... فما كلُّ بادٍ تحت ذيل الدجى بدرُ

وختمها بقولهِ

يحق على الافلاك جمع نجومها ... فيكتبُ منها في مدائحهِ سفرُ

وقال يرثي الطبيب يوسف الجلخ سنة ١٨٦٩ من قصيدة وكان صديقاً حميماً لهُ

جهد المحزن اذ صرف القضا نزلا ... ان يجتزي من عشاهُ بالذي فعلا
ويبتلي بقتيلٍ بالبكا وكفى ... بمن بكى قبلنا نامٍ لو امتثلا
سلا المحبون بعد اليأس واتخذوا ... تلك الشجون الى سلوانهم سبلا
قد اوجد الفقد حزناً للنقى فبكى ... واوجب الحزن صبراً بعدهُ فسلا
استغفر الله ما دمعي بممسكهِ ... ولا فؤادي عن الاشجان مشتغلا

(١) عارض بهذا البيت قول والدهِ من قصيدة :

سلام وما يغني السلامُ على البعدِ ... ولكنهُ اولى بتذكرة العهدِ

ولا يطاوعني صبري فانّهُ على الذي بي ولو طاوعتهُ عدلا

الى ان قال :

في ذمة الله من عندي لهُ ذمم لي الحبّ ليس بفيها مدمع هطلا
لقد ترحّل عن عيني وأودعها شخصاً يلوح خيالاً ليس مرتحلا
فظلّ يرسمها شجواً وتوسعهُ غسلاً بعارض دمع فرقة انهملا

ومن قصائده المستطيرة الشهرة وصفهُ للزهرة في معظم تألقها وذلك في اثناء شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٨٣ بمنظومة طويلة استرسل فيها الى المقابلة بينها وبين الارض ونشر مقتطفها في الضياء ١ : ٢٣٣ مطلعها

قف بي فحيي رباها أيها الحادي تلك ابياتها في عدوة الوادي
قد خيّمت بالثرى الغربيّ ضاربة عليه اطنابها من غير اوتاد
تغشي الطويبي كما مرّ النسيم ضحى في هودج من شعاع النور وقّاد
يحجب البعدُ سناها فان قربت صدّت دلالاً فزادت غلّة الصادي
يسارق الطرف عين الشمس منظرها فالشمس من دونها حلّت بمرصاد
حتى اذا هجمت في ليلها خطفت منها العيونُ بلمح اليسم البادي

ومنها : يا ليت شعري هل تدرين موضعنا وهل لديك رجال اهل ارصاد
وهل رأوا ركبنا النوريّ منطلقاً في ليلهم بين تصويب واصعاد
وهل اقاموا لنا مثل الذي رفعت آباؤنا لكِ من تكريم عبّاد
فذي هياكلك الشمّاء قد شخصت هاماتها في الذرى امثال اطواد

ومن ذلك قولهُ يهنّئ سعاد تلوليب بك جنبلاط بالرتبة الاولى سنة ١٨٨٤ م من قصيدة رشيقة قال فيها :

رعى الله مغنًى بالعُذيب ومعهدا غنينا به الاوطار مثنًى وموحدا
مرانع آرام وردنا بها المنى على حين لم يطرق لنا الدهر موردا
نغازل من غزلانها كل آنس ونهصر من اغصانها كلّ أملدا
ونرشف للافواه جامات ثغرها منضّدا أويقات أعطاف الشبيبة غضة على نسمات اللهو مالت تأوّدا
وقد غفلت عنا الخطوب بليلها ونمنا عهدنا حادث الدهر أرودا
أأحبابنا هل اورق الرندُ بعدنا وهل افرشكم روضة البان مقعدا

وهل مرّ للمشتاق ذكرٌ يحبكم فما زال ذكر الحيّ عندي مردّدا
ليهنكم أن طاعكم بعدنا الكرى فما ينكم لم توطىء الجنب مرقدا
ولا زارنا الصبر الجميل فليتكم أسام النوى شاطرتمونا التجلّدا

الى ان قال :

وما يعدم الانسان في الارض صحبة ولكن بعض الصحب ادنى الى العدى
فما اكثر الاّلاّف في كل بلدة واكثر قول الزور ممن تودّدا

ومن مديحها قوله :

كريم تبدّى من كرام مناصب لذاك تسمّى بالنسيب فما اعتدى
جميل الثنا يستغرق المدح وصفهُ كما استغرق الالفاظ احرف أبجدا
تطاول ارث المجد قبل وفاده وصاحب ترتّب المجد طفلاً وامردا

ومن اواخر منظوماته في سوريّة قصيدة مدح بها صاحب السعادة المركيز موسى افندي فريج بتوجيه الرتبة الاولى السنيّة اليه سنة ١٨٩٣ م قال منها :

أأحبابنا هل لذاك العهد تذكارُ يدني اليكم اذا لم تدنُ الدارُ

ومن محاسنها تخلصهُ بقوله :

ايام نمشي الى ضوء الشمول وقد بدا لها تحت جنح الليل اسفارُ
صهباء تكسو الندامى من اشعّتها كوجه موسى وقد ضاءت لهُ النارُ
مبارك الوجه صافي السرقد هبطت عليهِ من أفق الرضوان أنوارُ
في طاعة الله مساهُ ومصبحهُ ومنهُ للخير اعلان واسرارُ

ومن لطيف حكمها قولهُ

الفقر اجمل ثوب للكريم وان عاب الكريم وبعض الفقر مستارُ
وشرّ ما امتاز قدر الاغنياء بهِ اذا غلت منهمُ بالفلس اسعارُ

ومن اوائل قصائده بعد انتقاله الى القطر المصري قولهُ في مدح سمو الخديوي الحالي عباس باشا من قصيدة :

زمان الحمى هل من معادٍ فنطمعا ونمسك اكبادًا تذوب واضلعا
ويا منزل الاحباب هل لنيك وقفة تجدّد تذكاري وان كان موجعا
ويا نسمات الحمى كيف اهلهُ وهل طاب بعدي ذلك الحيّ مرتعا

ثم انتقل الى الشكوى من الوطن والتقلب حالتهِ العليَّة وتخلص الى مدح الخديوي بقولهِ

تدرَّعتُ نيك الصبر حتى اذا عدا ... تخذت حي العباس حصناً ومنزعا
هنالك تولى الأمر وهو على شفا ... تشيَّد من أركانهِ ما تضعضعا
تقلَّد اعباء الرئاسة امرداً ... وقد عرفتهُ قبل ذلك مرضعا
فكانت لهُ أمّاً وكان لها أباً ... غذتهُ وربَّاها وقد نشأا معا

ومن مقاطيعهِ البليغة قولهُ :

تعجب قوم من تأخر حالنا ... ولا عجبٌ من حالنا ان تأخرا
فقد اصبحت اذنابنا وهي أرؤسٌ ... غدونا بحكم الطبع تمشي الى الورا

وقال في صدر مقالة (البرد) في مجلة الطبيب :

والنجم قد عمَّ المشيب رؤوسهُ ... جزعاً وخرَّ على الصعيد طريحا
واقام لا يدري أبات مكفَّناً ... فوق الثرى ام كان ذاك ضريحا

وقال في مقالة اخرى يصف الغمام الماطر

فكم مأزر رطبةً نشرت على ... متن العواصف وهي ترشح بالندى
وكأن ذاك القطر دوب لآلىء ... سالت فاضحت في الغصون زمرُّدا

وقال في صورة شمسية :

ومصوَّر بالشمس وهو نظيرها ... اهدتهُ صورتها برسم مثالهِ
ولو ان شمساً صوَّرت بضيائها ... ما صوَّروهُ بغير نور جمالهِ

وقال وقد كتبهما على رسمهِ مضمناً :

هذا مثال من انطوت ... منهُ على الودّ الضمائر
يبدي لديك ظواهري ... "والله اعلم بالسرائر"

وقال يصف الحسن :

وقائل صف لنا ما الحسن قلتُ لهُ ... هذا الذي ليس للتعريف فيهِ يدُ
لا يجهل الحسن ما بين الورى احدٌ ... وليس يعلم منهم كنههُ احدُ
سرٌّ يلوح وراء الحسّ مرتسماً ... في النفس وهو عن الادراك منفردُ
لكن ترى العين منهُ شكل حاملهِ ... وانما حظها مما ترى الجسدُ

وكتب على احدى حنايا قلعة بعلبك بخطهِ الدقيق لما زارها

يا بعلبكَّ غريبة الازمانِ ... والعهد والصنَّاع والبنيانِ

لم تبلك الايام في حدثانها ... الا تظهر قدرة الرحمان (١)

وقال في الساعة الدقاقة :

وحصيفة اعمارنا كلما انقضت ... لنا ساعة دقت لها جرس الحزن

فيا بنت هذا الدهر سرت مسيرة ... فهل انت دون الناس منه على امن

وقال في كريستوف كولمب مكتشف اميركا وقد نقشت بخطه الجميل في اول التقاريظ الآتية وذلك في كتاب جمع التقاريظ بمعظم اللغات المشهورة طبع في ميلانو بايطالية :

ابقى خريستوف الشهير لنفسه ... ذكرا على الايام ليس يبيد

رجل لقد فتح البلاد بصبره ... وله من الهمم الجسام جنود

قد زاد هذي الارض ارضا مثلها ... لبديه التي كنزها المرصود

برزت اليه من الغيوب كأنها ... خلق سوى الخلق القديم جديد

فكأنه اذ حل فيها آدم ... وكأنها فردوسه المفقود

وقال وقد تنشا على عود طرب وفيهما استخدامان بديعيان :

وعود صفا التدمان قدما بظله ... وما برحت تصغو لديه المجالس

تغنى طيرا الاراكة اخضرا ... وحن عليه ريشه وهو يابس (٢)

وله كثير من التواريخ الشعرية من اقدمها قوله في كتاب مفتاح المصباح لعلامة بطرس البستاني سنة ١٨٦٢

هذا كتاب عظيم النفع قد قضيت ... في الصرف والنحو منه حاجة العرب

---

(١) ومن لطيف المعارضات ما قاله الاستاذ ابرهيم افندي الحوراني لما وقف على هذين البيتين :

يا هيكلا فيه العقول تحيرت ... يا معملا لمفرق الاديان

لم تبك الايام في حدثانها ... الا لتظهر قدرة الانسان

توفق بينها المرحوم سليم بك نقلا بقوله :

يا هيكلا فيه العقول تحيرت ... لعجائب البنيان والاتقان

قد انشأوك غريبة كي يعربوا ... عن قدرة الرحمان بالانسان

(٢) نظم في مثل هذا المعنى ابن سعيد القيرواني هذين البيتين :

سقى الله ارضا انبتت عودك الذي ... زكت منه اغصان وطابت مغارس

تغنى عليها الطير وهو رطيبة ... وغنت عليها الناس والعود يابس

وتابعه شاعر آخر بقوله : وعود له نوعان من لذة الغنا ... فعودك حين يجتنى ورغارس

تغنت عليه وهو رطب حمامة ... وغنت عليه قينة وهو يابس

ولكن اليازجي زاد عليهما معنى الظل والنرجس والصفاء والحنين وزاد حسنا الخضرة البديعي في كل منها فضلا عن رشاقة اللفظ مما يشهد به كل ذي ذوق سليم

جئت كما قال تاريخي مقاصدهُ فذاك مفتاح كنز العلم والأدبِ

ونوعد في اجراء سيبن ماد وصى بو يوحنا الجمال قبل وفاتهِ سنة ١٨٧٦ :

من مال يوحنا بن جمال جرى هذا السبيل فصحَّ فيهِ ثوابهُ
فغدا لأصداف النواظر لجَّةً أرِّخ وللظامين راق شرابهُ

ولهُ قصيدة تاريخية تحدَّى فيها طريقة شاكر الحلاوي وهي في مدح ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان وزع على اوائلها بيتين ضمنها ثمانية تواريخ لسنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨م) وضمَّن في كل بيت من القصيدة تاريخين مجربين لهذه السنة ومن اسبيها قولهُ

افدي الدُّمى في مصون الحجب قد كسرت الحاظها كلَّ قلبٍ من محبيها
كواعب ظلمت حورًا بجنتها تندى بنفسي فما ابهى تجليها

وقولهُ مؤرِّخًا ضريح المرحوم والدهِ المتوفى سنة ١٨٧١ من ابيات

لو انصفتك النائبات لغيَّرت عاداتها ووقتك حادثة الرَّدى
تتزلَّزل الاملاك حولك بالرضى ويجود فوقك باكيًا قطر الندى
وجميل حظك في الاعالي رحمة أرِّخ وذكر في الصحائف خُلِّدا

وقولهُ يؤرِّخ ضريح المرحوم مراد مسلَّم من زحلة المتوفى سنة ١٨٨١ من ابيات :

وبكى ذوو الحاجات خير ذخيرةٍ دفنت بها الايام اكرم جوهرِ
في تربة كتب المؤرِّخ قولها يا رمس قد حزت المراد تأبشرِ

وقولهُ يؤرِّخ ضريح الصحفي الشهير سليم بك نقلا اليتاني المتوفى سنة ١٨٩٢ من ابيات

ولقد مضى نحو البقاء فضيلةٌ بجوار خالقهِ رضىً ونعيمُ
فاتيت بالتاريخ ألفظ قائلاً قد حلَّ في دار السلام سليمُ

الى غير ذلك مما يدل على انهُ شاعر عصري جمع بين طريقتي المتقدمين والمتأخرين مع مراعاة الشاعرية العربية المحضة وتحدي اساليب البلغاء فعرف شعرهُ بمباهجة اغراضهِ وسموّ معانيهِ والاكثار فيهِ من الصور الخيالية والتفنن في اساليب المجاز مع توخي الالفاظ الفصيحة والتراكيب البليغة التي لم تألفها العامَّة ولم تبتذل في استعمال الخاصَّة وكأني بهِ انقطع عنهُ لكساد بضاعتهِ عندنا وتقرَّعنا الى ما هو اجدى نفعًا عملاً بقول المرحوم والدهِ :

وقد شقَّ نظم الشعر عندي لعلَّةٍ يشقُّ على قلبي الصبور جحودُها
من الشعر مدحٌ قلَّ من يستحقهُ وصنعة هجو لستُ ممن يريدها

(ستأتي البقية) عيسى اسكندر المعلوف